

إعادة تهيئة المتاحف الكبرى في تونس: قراءة في تطور السياسة المتحفية في تونس من خلال
نموذج المتحف الاثري بسوسة

*The redevelopment of major museums in Tunisia: an analysis of changes in
museum policy through the example of the Archaeological Museum of Sousse*

سفيان بن موسى

جامعة سوسة (تونس)

sofiene.benmoussa@flsh.u-sousse.tn

تاريخ الاستلام: 2026/02/04... تاريخ القبول: 2026/02/24...

● الملخص:

ضع الملخص هنا (نوع الخط)

يناقش هذا المقال مراحل ونتائج مشروع إعادة تأهيل المتاحف الكبرى في تونس من خلال نموذج المتحف الاثري بسوسة كما يتعرض لدواعي هذا المشروع واشكاليات تنفيذه. نتائج المشروع افضت الى بناء متحف جديد اعتمد على مواصفات متحفية عالمية وطرق عرض مبتكرة لكن في المقابل تم تسجيل عدة نقائص مرتبطة بالبناء في فضاء اثري وتجاوز الميزانية المرصودة وصعوبة فهم رسالة العرض.
كلمات مفتاحية: متحف، سوسة، تأهيل، عرض، تنمية، سياحة.

Abstract: (

This article discusses the stages and results of the project to rehabilitate major museums in Tunisia, using the example of the archaeological museum in Sousse. It also examines the reasons behind this project and the problems encountered in its implementation. The project resulted in the construction of a new museum based on international museum standards and innovative display methods. However, several shortcomings were noted, related to construction in an archaeological space, exceeding the allocated budget, and difficulty in understanding the message of the exhibition.

Keywords:

Museum, Sousse, rehabilitation, exhibition, development, tourism.

● مقدمة:

- يوجد بتونس خمسة و عشرون متحفا عموميا مختصا في التاريخ و الاثار و الاثنوغرافيا من ضمن اربعة و ثلاثين متحفا ثقافيا¹. تتوزع هذه المتاحف على كامل تراب الجمهورية ولكن بشكل غير متكافى بين شرق البلاد (ستة عشر متحفا) و وسطها و غربها (تسعة متاحف) و بين الشمال (تسعة عشر متحفا) و جنوبها (ستة متاحف) .
- بينما تغيب المتاحف ذات الصبغة الثقافية العمومية في ولايات مثل توزر و زغوان و باجة و سيدي بوزيد (المشروع المعطل لمتحف الثورة) و تطاوين (مشروع متحف الاحياء القديمة).
- سنحاول في هذ المقال فهم و مقاربة السياسة المتحفية في تونس من خلال نموذج المتحف الاثري بسوسة خاصة من خلال برنامج إعادة التهيئة لهذه المؤسسة المتحفية.

1. العنوان الرئيسي الأول: بعض المفاهيم

الفرعي الأول:

تعريف المتحف:

ظهرت محاولات عديدة للتعريف بالمتحف وحتى إعادة تعريفه². هذه المحاولات تبدو مقبولة نظرا لخصوصية كل بلد او منطقة وطبيعة و اهداف السياسة الثقافية و المتحفية المعتمدة. بالمقابل يبقى تعريف المتحف المقدم من طرف المجلس الدولي للمتاحف (ICOM) هو الاكثر تداولاً و قبولاً في الاوساط الاكاديمية و الثقافية. يعرف المجلس الدولي للمتاحف المتحف باعتباره « المتحف هو مؤسسة دائمة غير ربحية تخدم المجتمع، وتكرس جهودها للبحث عن التراث المادي وغير المادي وجمعه وحفظه وتفسيره وعرضه. وهو مفتوح للجمهور ومتاح للجميع وشامل، ويشجع التنوع والاستدامة. تعمل المتاحف وتتواصل بطريقة أخلاقية ومهنية، بمشاركة مجتمعات متنوعة. وهي توفر لجمهورها تجارب متنوعة في مجالات التعليم والترفيه والتفكير وتبادل المعرفة»³.

عمارة المتاحف:

ظهرت العمارة الخاصة بالمتاحف في أوروبا منذ أواخر القرن الثامن عشر معتمدة على أنماط هندسية نيو كلاسيكية استعملت مفاهيم مثل القاعة و الرواق و الباحة و المداخل المهيبة كثيرة التزييق مما جعل شهرة بعض المتاحف وقتها مرتبطا بشهرة أبنيتها . في المقابل تهدف الهندسة الحديثة للمتاحف الى إيجاد توازن بين هندسة المبنى و القطع المعروضة و مع الحرص على أن لا تحجب الأولى الثانية و أن تكون في مستوى العرض و تخدم موضوعه. هذه العمارة المتحفية الحديثة عملت كذلك على حل جملة المفارقات الموجودة بهذه المؤسسات مثل : الرغبة في استقبال العموم و بعض ضرورات العرض، الرغبة في صيانة القطع المعروضة و الحاجة الى توفير خدمات مريحة و الاستغلال الاقتصادي للمبنى... وهو ما يحتم ان يكون مبنى المتحف على درجة من الاتساع حتى يكون قادرا على استيعاب كل الأقسام و الخدمات و الوظائف الموكلة له⁴.

¹ www.patrimoinedetunisie.com.tn/arabe/musees.htm

² Mairesse F. et Desvallées A. Vers une redéfinition du musée, Ed. L'Harmattan, 225 p.

³ اعتمد هذا التعريف للمتحف اثر مؤتمر المجلس الدولي للمتاحف المنعقد ببراق سنة 2022

<https://icom.museum/fr/ressources/normes-et-lignes-directrices/definition-du-musee/>

⁴ Lacalotte M. 2001, « L'expansion des musées : constructions, extensions, rénovations », in L'avenir des musées, Actes du colloque organisé au musée de Louvre, Paris, p. 27

العرض المتحفي:

إن العرض المتحفي، سواء كان هذا العرض قارا أو وقتي، هو عملية تقديم للعموم لمجموعة قطع خاصة بالمتحف وفقا لموضوع، أو مواضيع، رسالة أو رسائل. العرض المتحفي هو أيضا منظومة ناتجة عن تنظيم معين لقطع في فضاء ما و لغرض جعلها مفهومة لدى قاعدة عريضة من الناس.⁵

وظائف المتحف:

عموما هناك اربع مهام أساسية للمتحف

- مهمة العرض للعموم: ان الصبغة العامة و الانفتاح على كامل الفئات الاجتماعية يجعل من مجموعات المؤسسة المتحفية تختلف جذريا عن المجموعات الخاصة أو الخزائن البنكية⁶.
- مهمة الحفظ: توفير الحماية للمجموعات ضد السرقة و التلف والعمل على إبقاء المجموعات في حالة جيدة لأطول فترة زمنية ممكنة. هذا الهدف لا يمكن الوصول إلا عبر وسائل ذات صلة بالعمل المتحفي اهمها الجرد و الصيانة و الترميم.
- المهمة العلمية (البحثية): هي مجموع الدراسات التوثيقية، التاريخية، الاثرية، الفيزيائية و الكيميائية... التي من شأنها ان تضع المعروضات داخل أطرها. هذه الأبحاث يمكن أن تقام في المتحف نفسه من طرف الباحثين الملحقين به أو في خارج المتحف عبر اعتماد مخابر مختصة.
- مهمة التنشيط: هي الوظيفة الاحداث للمتاحف التي اصبح من واجبها الانخراط داخل الحياة الثقافية و الاجتماعية للمدينة او المنطقة التي تنتمي لها. هذه الوظيفة ستلعب دور المحرك للمؤسسة المتحفية و قد تأخذ اشكالا متعددة منها العروض الوقفية، الزيارات الموجهة، المؤتمرات، الحفلات، الورشات...
- إن جملة التعريفات المقدمة اعلاه تهدف لتكون منطلقا لتقييم مدى نجاح تجربة إعادة تهيئة بعض المتاحف التونسية و تحديدا المتحف الاثري بسوسة.

2إعادة تهيئة المتاحف التونسية من خلال نموذج المتحف الاثري بسوسة

يقدم لنا الموقع الرسمي لوكالة إحياء التراث و التنمية الثقافية⁷ إطار و أهداف برنامج إعادة تهيئة بعض المتاحف و المواقع التونسية: «في نطاق تطبيق استراتيجية شاملة لتحديث قطاع الثقافة و التراث وتدعيم السياحة الثقافية أرست الدولة التونسية، بمساعدة البنك العالمي، في سنة 2002 ، مشروعا بمقدار جملي يبلغ 19,2 مليون يورو معدا للتصرف في التراث الثقافي و تهيئته»..

هدف هذا البرنامج الى تهيئة متحفين هما المتحف الوطني بباردو و المتحف الاثري بسوسة اضافة الى أربعة مواقع أخرى هي الموقع الاثري بقرطاج، الموقع الاثري باوذنة (UTHINA)، المدينة العتيقة بالقيروان و جزيرة جربة.

متاحف سوسة الاولى: القاعة الشرفية و المتحف البلدي

لقد ساهمت الاكتشافات و الحفريات الاثرية في نهاية القرن التاسع عشر حول مدينة سوسة في ظهور الحاجة الى تجميع وحفظ⁸ أهم القطع المكتشفة في فضاءات محمية. هذه الفضاءات لم تكن لها في البداية صبغة المتحف بل كانت عبارة عن مخازن مكتظة و غير مرتبة على غرار القاعة الشرفية للفوج الرابع للقنصاة⁹ (انظر اللوحة عدد 1، صورة 1) و

⁵ Dubois F. 1997, l'exposition et le rêve, in lettres de l'ICOM, n° 50-1997, Dijon, p. 20

⁶ ارتبطت فكرة عمومية المتاحف باعلان نابليون الاول تأميم التراث الوطني الفرنسي و اخراجه من الدائرة الضيقة لطبقة النبلاء و البرجوازية الصاعدة

⁷ www.patrimoinedetunisie.com.tn

⁸ تم التركيز في هذه الفترة على تجميع اللقى من الفترة الرومانية لتأكيد احقية فرنسا في استرجاع ممتلكات روما. اغلب اللقى اكتشفت على يدي الفرق العسكرية التي ستحتفظ بها داخل اسوار المعسكرات. انظر اطروحة:

Saidi H. (2007) Sortir du regard colonial : politique du patrimoine et du tourisme en Tunisie depuis l'indépendance, Université Laval, Québec, p. 124.

⁹ Beauchamps M., 1926, Un musée de Sousse : La Salle d'Honneur du 4e Régiment de Tirailleurs, in Bulletin de la SAS, n°17, p. 54-72.

التي لم تكن مفتوحة إلا لكبار الزوار و العسكريين¹⁰. وقد كان المتحف البلدي¹¹ أول متحف مفتوح للعموم بمدينة سوسة حيث دشن في 24 افريل 1899 استجابة لمطلب الجاليات الاوروبية بالمدينة. بني هذا المتحف مكان سوق الاسماك القديمة وفي الساحة المعروفة اليوم بساحة فرحات حشاد (انظر اللوحة عدد 1، صورة 2). دمر هذا المتحف¹² اثناء الحرب العالمية الثانية بسبب قربه من الميناء الذي استهدفه طيران الحلفاء في اواخر 1942 و بداية 1943. (انظر اللوحة عدد 1، صورة 3).

اثر نهاية الحرب العالمية الثانية، ظهرت محاولات جديدة لبعث مؤسسة متحفية جديدة بمدينة سوسة لم ترى النور الا في سنة 1951 على اثر مجهودات كبيرة كان ورائها لويس فوشي¹³ (L. FOUCHER.) و الجمعية الاثرية بسوسة¹⁴. أنشأ فوشي المتحف داخل أسوار المدينة و تحديدا بموقع القصبة العثمانية. استمدت عمارة المتحف من النمط المعماري التونسي و اعتمدت على تقسيم الفضاء الى قاعات و اروقة تحيط بباحة تتوسط المبنى. كما استغل فوشي جزءا من المباني القديمة بالقصبة كمخازن لحفظ اللقى الاثرية المتزايدة المكتشفة بجهة سوسة (انظر لوحة عدد 1، صورة 4).

2.2 العنوان الفرعي الثاني: المتحف الاثري بسوسة بعد اعادة التهيئة:

1.2.2. دواعي إعادة التهيئة :

من الاسباب المباشرة لإعادة تهيئة المتحف الاثري بسوسة منزلته كثنائي اهم متحف في تونس بعد المتحف الوطني بباردو، زيادة على صعوبة صيانة القطع الأثرية بالمتحف القديم خاصة الفسيفساء التي بدأت تظهر عليها المشاكل المرتبطة بالرطوبة¹⁵ و الترميم السيء¹⁶. وهي مشاكل سيحاول المتحف الجديد تجاوزها عبر تطوير ظروف الصيانة بقاعات العرض و احداث هيكليين احدهما يخص ترميم الفسيفساء، و الثاني يهتم بصيانة القطع بالمخازن. كما هدف المشروع كذلك الى إعادة الاعتبار لمعلم القصبة و جعله قابلا للزيارة بعدما كان مؤسسة سجنية اضافة الى تجاوز مشكل ربط المتحف بالمدينة العتيقة وخلق مسار ثقافي، كان مطلبا ملحا من طرف الفاعلين في مجال السياحة. وقد استغل القائمون على عملية التهيئة وجود الباب العثماني لربط مسار المدينة العتيقة بمسارين آخرين للزيارة أحدهما يهتم القطع المعروضة بالمتحف و الثاني يشمل معلم القصبة عبر مسار العسس و المقابر البونية.

كما اقتضت موجبات تطبيق المعايير الدولية في مجال المتحفية لحماية القطع و الزوار داخل المتحف لوضع هيكلة للعرض و سينوغرافية متحفية تقلل من المعروضات و تستعمل إضاءة تراوح بين الطبيعي¹⁷ و الاصطناعي مع استعمال ألوان تراعي مواضيع اللوحات و القطع المعروضة¹⁸. كما حرص مصلحوا المتحف على تجاوز منطق تسلل قاعات العرض عبر خلق فضاء مفتوح يعطي للسينوغرافي فرصا أكبر لتطوير العرض المتحفي الدائم. كما تم إحداث قاعة للعروض الوقتية في المعلم المعروف بالقاعة الحسينية الموجود بمدخل القصبة¹⁹.

2.2.2 إشكاليات إعادة التهيئة

رغم وجود دراسات اشرفت عليها مكاتب مختصة²⁰، فقد لقي مشروع اعادة تهيئة المتحف الاثري بسوسة عدة صعوبات ارتبطت بغياب الحس الاثري و التاريخي لدى القائمين على المشروع ومنها:

- تم الابقاء على مكان انشاء المتحف الاثري بسوسة بالقصبة و داخل اسوار مدينة سوسة العتيقة المسجلة ضمن قائمة التراث العالمي منذ سبتمبر 1988. البناء في هذا الموقع يحتاج الى تراخيص بناء خصوصية و شديدة الصرامة من حيث المخططات و المواد. وهو ما سيجعل المخططات المعمارية الاولى للمتحف ترفض خاصة لعدم إمكانية البناء

¹⁰ Ibid, p. 57

¹¹ P. Gauckler, E. Gouvet, G. Hannezo: « Musées de Sousse », in Musées de l'Algérie et de la Tunisie, Ed. Leroux, Paris, p. 3.

¹² تم تجميع ونقل القطع الاثرية بصفة استباقية قبل عمليات القصف الجوي للميناء

¹³ لويس فوشي (1918-2003) درس الآداب الكلاسيكية بمعهد الذكور بسوسة بمدينتي الجم و سوسة. انجز عديد الابحاث حول منطقة الساحل التونسي و خاصة اكمل مساره المهني كاستاذ تعليم عالي بجامعة تور الفرنسية

¹⁴ جمعية علمية اهتمت بدراسة اثار مدينة سوسة: Société archéologique de Sousse (S.A.S)

¹⁵ الرطوبة المشبعة بالرطوبة في مدينة سوسة الساحلية وفي متحف يواجه البحر مباشرة هو سبب رئيسي في انفصال مكعبات الحجارة المكونة للوحات الفسيفساء خاصة منها الموضوعة على محامل من الجبس، شديد التأثر بالرطوبة.

¹⁶ الترميم السيء يظهر من خلال استعمال الاسمنت في الترميم ووضع محامل من الاسمنت المسلح لفسيفساء وقع عرضها بأرضية المتحف القديم ولم ينجوا منها الا القليل من اللوحات.

¹⁷ الاضاءة الطبيعية استعملت طريقتين لاستغلال ضوء النهار هما طريقة بئر الضوء (اضاءة صحن المتحف و المداخل الجانبية لمدخل العمال و الموظفين) و الواجهات الزجاجية (اضاءة المدخل الرئيسي لفضاء العرض)

¹⁸ تم مثلا استعمال اللون الاحمر القاني على محامل الفسيفساء موضوعها الخمر و الاله ديونيسوس في حين تم استعمال اللون الرمادي في الفضاء التوفاة (معبد ومقبرة بونية) و فضاء الدواميس الجنائزية للفترة المسيحية المبكرة

¹⁹ كانت هذه القاعة فضاء سجنى استغل الى حدود ثمانينات القرن العشرين

²⁰ اشرفت وكالة ليكومت نوارو (فرنسا) على التصميم المتحفي فيما اشرفت شركة آ.دي. أن (فرنسا) على التهيئة و الانارة

العمودي الذي يزيد ارتفاعه عن ارتفاع الاسوار. وهو امر سيدفع الى التفكير في خلق فضاء عرض تحت-ارضي. هذا التوجه الثاني سيتعرض الى إشكالية البناء في موقع اثري معروف. ففضاء القصبية كشف اثناء وضع اسس انشاء المتحف الاثري القديم مقابر بونية تم تبويبها ضمن مسارات المتحف من طرف لويس فوشي²¹. سيظهر هذا المشكل سريعا مع وضع الاسس الاولى للمتحف الجديد وسيدفع الى إجراء "حفريات انقاذ" للآثار البونية و الرومانية المكتشفة. كما أدى عمق الاسس الجديدة للمتحف الى انهيار جزء من السور الغربي للقصبية لم يخلف لحسن الحظ خسائر بشرية²² (لوحة عدد 2، صورة عدد 1)

كما تم هدم كل المباني الراجعة للفترة الاستعمارية بغرض خلق فضاء مفتوح للعروض (لوحة عدد 2، صورة عدد 2). من ناحية اخرى لم تراعي الدراسات مشكلة التلوث البيئي وصعوبة التنقل حول فضاء المتحف الاثري الواقع بالقرب من المدخل الغربي و الجنوبي للمدينة.

كما يطرح وجود المتحف في مواجهة مقرات امنية وسيادية (ولاية سوسة، حامية سوسة، نادي الضباط، مركز التجنيد، مدرسة ضباط الصف...) مشاكل تأمين هذه المؤسسة من العمليات الارهابية بالخصوص باعتبار منظومتها في الحراسة ومراقبة الزوار الحلقة الاضعف في محيطها²³.

إن الاعتماد على مكاتب دراسات اجنبية خاصة في مجال العرض طرح بمتحف سوسة الاثري مشاكل تتعلق بالمجموعات الاثرية المعروضة. وظهرت هذه المشاكل خاصة من خلال عدم رضى لدى موظفي المتحف و العاملين به على القطع الاثرية المعروضة وامتعاضهم لعدم استشارتهم في اختيار المعروضات.

لقد ساهمت كل هذه العوامل في تأخر استكمال مشروع إعادة التهيئة و الذي تحول الى عملية انشاء متحف جديد وفقا لدراسات جديدة و مخططات جديدة²⁴ و تأخير في الاجال. هذا التأخير سيجعل هذه المؤسسة تغلق لمدة اربعة سنوات وهو ما سيمثل خسارة مالية تقدر بحوالي أربعة مليون دينار: منها ثلاثة ملايين زيادة في ميزانية المشروع و واحد مليون مداخل ممكنة من بيع تذاكر الدخول طيلة فترة الغلق. (لوحة عدد 3، رسم بياني عدد 1)

2.2.3 المتحف «الجديد»

سمح التوسع على حساب السجن القديم و المباني الراجعة للفترة الاستعمارية داخل القصبية التي دمرت بالكامل من توفير مساحة مهمة، اكثر من 2000 م² لإقامة فضاء عرض متحفي تحت أرضي في حين استغل الفضاء العلوي (مستوى الأرض) كساحة كبيرة تستغل للأنشطة الثقافية إضافة لتوسعة الحديقة اركيولوجية القديمة التي انشأها لويس فوشي.

رغم أهمية المساحة المخصصة لفضاء العرض فإن المجموعات المعروضة تعود كلها للفترة القديمة خاصة الرومانية منها. فالفسيفساء الرومانية (فترة وثنية/ فترة المسيحية المبكرة) تمثل اكثر من 80 من القطع المعروضة. كما خصصت قاعتان لعرض آثار نفس الفترة وهما قاعة الخزف الروماني وقاعة الآثار الجنائزية للفترة المسيحية المبكرة. كما تم استغلال بعض الأروقة الجانبية و الأطراف الشمالية و الجنوبية لفضاء العرض الكبير لعرض بعض المنحوتات الخاصة بنفس الفترة الرومانية (لوحة عدد 4، صورة عدد 1). بالمقابل لا نجد إلا قاعة عرض وحيدة مخصصة للفترة البونية. هذه القاعة المعروفة بقاعة التوفاة والتي تعرض فيها مجموعات خزفية²⁵ ونصب جنائزية و نذرية للإله بعل-حمون والإلهة تانيت.

لقد ساهمت عملية التهيئة كذلك في تقديم المتحف لجملة من المهام الجديدة أو تقديمها بطريقة أفضل. من ذلك مثلا تحسن ظروف استقبال الزائرين قبل الدخول لقاعة العرض، إذ تم تعويض شباك اقتناء التذاكر بقاعة استقبال فسيحة مجهزة بمكتبين لبيع التذاكر المطبوعة أنيا والكتب و نسخ ومجسمات صغيرة المعروضة بديكان المتحف (shop book). كما أحدث ضمن هذا المشروع قاعة للعروض الوقتية بفضاء القاعة الحسينية و فضاءات للتنشيط بساحة القصبية إضافة الى تقريب مكتبة المتحف من فضاء العرض.

²¹ مازالت هذه المقابر محفوظة في فضاء المتحف الاثري القديم بقصبية مدينة سوسة

²² في ستينيات القرن العشرين انهار جزء من السور الجنوبي الغربي للقصبية اثناء عمليات ترميم

²³ العملية الارهابية بمتحف باردو في 18 مارس 2015 و قبلها السيارة المفخخة المفجرة قرب المتحف الاسلامي بالقاهرة عندما عجز منفذ العملية عن الاقتراب من مديرية امن القاهرة.

²⁴ اربعة مخططات استنادا الى روايات شفوية مستقاة من عمال وموظفي المتحف

²⁵ منها خزف جنائزي يحمل بقايا رماد الموتى واخرى للاستعمالات اليومية منه ماهو محلي الصنع ومنها المستورد

لقد منح فضاء العرض المفتوح ولأول مرة بمتحف أثري بتونس من تطبيق فكرة إخراج العرض المتحفي (أو سينوغرافيا العرض) والتي اعتمدت بمتحف سوسة الأثري على هيكلية مركبة تجمع بين هيكلية المواضيع (مشاهد بحرية و نيلية، مثبولوجيا، حياة يومية، الشعائر الجنائزية، حياة ثقافية) مع هيكلية التقنيات (الفسيفساء، الخزف، النحت). بالنسبة للصيانة و الترميم، و التي كانتا من أكبر اشكاليات المتحف، تم تركيب منظومة تدفئة وتهوية مركبتين للتحكم في الرطوبة و الحرارة داخل فضاءات العرض. كما استعملت إحدى أنواع الحصى البركانية الممتصة للرطوبة حول اللوحات الفسيفسائية المعروضة بالأرضيات وفي محامل بعض المنحوتات الموجودة بأروقة المتحف. ونظرا لأهمية المجموعات الفسيفسائية التي يمتلكها المتحف كان إحداث ورشة لصيانة و ترميم الفسيفساء حتميا لإبقاء هذه المجموعات في حالة جيدة ومحو آثار الزمن عليها.

لقد مكن نقل الإدارة العلمية التابعة للمعهد الوطني للتراث الى الفضاء العلوي للمتحف الجديد وتحويل كل من الإدارة التابعة لوكالة احياء التراث و تفقدية التراث من مواقعها في المباني القديمة للقصة الى اخرى خارج أسوار المدينة العتيقة في توفير فضاءات خزن جديدة وتحسين إدارة المخازن و حمايتها²⁶.

3. . العنوان الرئيسي الثالث: تقييم مشروع إعادة التهيئة والسياسة المتحفية في تونس

رغم أهمية عملية إعادة التهيئة التي خضع لها المتحف الأثري بسوسة وظهوره في ثوب عصري يتلائم مع متطلبات المتحفية الحديثة من عمارة وعرض و خدمات فإن بعض الاسئلة و المشاكل الجوهرية تبقى عالقة.

فمثلا فكرة حفظ وصيانة التراث، عبر إنشاء المتحف الجديد، تمت على حساب التراث نفسه الذي هدم بعضه كليا داخل اسوار القصبة (المباني الاستعمارية خصوصا) فيما اختفت أجزاء أخرى منه نتيجة إنشاء فضاء العرض التحت-أرضي (مقابر بونية/ اثار رومانية....).

كذلك كلفت عمليات إعادة تهيئة المتحف الأثري بسوسة أكثر مما رصد لها من أموال نتيجة تجاوز آجال الإنجاز بسبب تأخر التراخيص الضرورية للبناء و اكتشاف آثار قديمة اقتضت تدخلا عبر حفريات انقاذ. وهو امر سيجعل مشروع إعادة التهيئة يتحول الى مشروع إنشاء لمتحف جديد تكلف أكثر من عمليات الإنشاء ذاتها.²⁷ وهو ما يؤيده ارتفاع تكلفة الميزانية الاولى المرصودة للمشروع من حوالي 2 مليار مليم²⁸ الى حوالي 5 مليار مليم مع نهاية الإنجاز (لوحة عدد 4، صورة عدد 2) .

من ناحية أخرى ورغم أهمية وجمالية إخراج العرض المتحفي بمتحف سوسة الأثري، فإن رسالة المتحف، التي تقتضي ضرورة التعبير عن تاريخ البلد وهويته أو هوياته، تبدو غائبة. إن الاعتماد على متحفيين أجانب (لوحة عدد 4، صورة عدد 2)، دون استشارة الإطارات و العاملين بالمتحف سيجعل العرض المتحفي غير مستساغ من طرف العاملين به الذين اعتبروا ان قطعاً مركزية من ضمن مجموعات المتحف ابعدت عن العرض الذي ركز بشكل شبه كلي على الفترة الرومانية²⁹.

أخيرا ورغم إدراج ربط المتحف بالمدينة العتيقة عبر الباب العثماني ضمن مشروع إعادة التهيئة فإن هذا الربط بقي غير مفعّل إذ تواصل غلق الباب الرابط بين المدينة العتيقة و المتحف لاعتبارات أمنية وتنظيمية . فتواصل بذلك غياب الانفتاح على الفضاء القريب³⁰ الذي تعمق أكثر مع ارتفاع أسعار تذاكر الدخول لغير التلاميذ و الطلبة و الأسلاك التعليمية.

²⁶ كان فضاء المخازن ممرا يسلكه طالبوا رخص البناء في المناطق المحمية للحصول على موافقة التقديرية الجهوية المعهد الوطني للتراث

²⁷ 12 مليار مليم لتهيئة المتحف الوطني باردو

²⁸ Ben Othman A., 2009, Musée archéologique de Sousse : Réaménagement et enrichissement, in Journal « La Presse », n° du 20 janvier 2009. 2p.

²⁹ ان مبررات مثل اهمية مجموعة الفسيفساء التي يمتلكها المتحف وجمالية المنحوتات الراجعة للفترة الرومانية لم تعد مقبولة اليوم باعتبار وجود حلول متحفية لتقديم هذه المجموعات من خلال العروض الوقتية او المخازن المفتوحة للزيارة.

³⁰ نجد نفس القطيعة في المتحف الوطني بباردو حيث الاسلاك الشائكة و الاستنفار الأمني بمداخل المتحف

3.1 هل هناك سياسة متحفية في تونس؟

للإجابة على هذا السؤال يمكننا الرجوع الى إحدى مقالات أستاذنا الحبيب بن يونس (أثري، ومتحفي تونسي) الذي قدم الإجابة التالية:

«مؤسسات فاق عمر بعضها القرن، تراث أثري و اثنوغرافي... إن الوضعية الهشة على المستوى المؤسسي كما الوظيفي لمتاحفنا مرتبطة بسبب وجيه: غياب سياسة تراثية، مصدرها غياب سياسة ثقافية بصفة عامة. من المتسبب في ذلك ؟ ومن يتحمل مسؤولية ذلك؟»³¹

من ملامح غياب هذه السياسة المتحفية في تونس نذكر:

3.1.1 غياب الإطار القانوني:

رغم وجود تعريف عام للمتاحف من طرف المجلس الدولي للمتاحف يمكن القبول به في تونس. فإن إمكانية تحويل و تعديل هذا التعريف وفقا لمقتضيات السياسة المتحفية الوطنية لم يطرح أصلا للنقاش ولم يحدد له الإطار القانوني الذي يضبط طبيعة هذه المؤسسة وأهدافها و القوانين الخاصة بها وهيكلتها التنظيمية. كما تغيب كل القوانين المنظمة للمهن، سواء كانت دائمة أو وقتية، داخل نفس المؤسسة (مديرين، محافظين، حراس...).

3.2.1 ازدواجية الإدارة بالمتاحف: "الخصوصية الثقافية" التونسية:

فكرة الإدارة المزدوجة للمتاحف (بحثية و إدارية) فكرة حديثة نسبيا يتم تطبيقها في بعض المتاحف الكبرى في العالم مثل متحف اللوفر في باريس و متحف الحرب العالمية الأولى في بيروني والمتحف الملكي بماري مونت ببلجيكا³². في تونس يتم تطبيق الازدواجية الإدارية على عموم المتاحف دون استثناء.

- الإشراف العام لوزارة الثقافة و المحافظة على التراث (وزارة الشؤون الثقافية حاليا)

- إشراف المعهد الوطني للتراث من خلال ادارة التنمية المتحفية : الادارة العلمية

- إشراف وكالة إحياء التراث و التنمية الثقافية (وحدة إدارة و إحياء التراث الثقافي): : الادارة المالية

ازدواجية الإشراف على المؤسسات المتحفية -{ ازدواجية التوظيف --} ازدواجية القرار داخل هذه المؤسسات.

3.3.1. المتاحف و التنمية: السياحة الثقافية الى أين؟

قدرت مداخل المواقع و المتاحف التونسية قبل 2011 في حدود 14,700 مليون دينار في سنة 2009 لترتفع هذه المداخل الى اكثر من 15 مليون دينار في 2010³³.

كل هذه المداخل المالية لم يستفد منها القطاع رغم ان زيارة المتاحف و المواقع الاثرية مكنت من جذب اكثر من 2 مليون زيارة مدفوعة منها اكثر من 1,7 مليون شملت متحف باردو ومواقع قرطاج و الجم و القيروان³⁴. مع العلم أن بقية المواقع و المتاحف وعددها أكثر من 50 لم تسجل سوى 519 ألف زيارة في 2010³⁵.

هذه الأرقام على أهميتها لا يمكنها أن تحجب حجم الزيارات الممكنة باعتبار زيارة حوالي 7 مليون سائح أجنبي لتونس في نفس السنة. هذا الضعف في الإقبال على متاحفنا مرده أسباب مثل التركيز على السياحة الشاطئية و غياب الإعلام والإشهار والتي بتفاديها يمكن على الأقل مضاعفة مداخل السياحة الثقافية في تونس.

لم يعد من الممكن اليوم إهمال هذا الجانب التنموي للمتاحف خاصة أمام اشتداد المنافسة العالمية و حتى العربية خاصة بدول الخليج حيث وضعت إمكانيات هائلة من دول مثل الامارات (متحف اللوفر ابوظبي) كذلك الكويت و قطر و السعودية و سلطنة عمان. هذه الانشاءات الجديدة لمتاحف بمواصفات عالمية ومجموعات ثرية تتجاوز الإطار القطري وتستهدف السائح الثقافي بالبلدان الآسيوية الصاعدة (كالصين و الهند و دول آسيا الوسطى) إضافة الى السائح المحلي الخليجي و التي تغنيه عن التنقل الى القارة الأوروبية أو الأمريكية.

4. العنوان الرئيسي الرابع: بعض الحلول و الافاق الممكنة:

إن النهوض بالمتاحف و السياحة الثقافية في تونس يتطلب حسب رأينا:

³¹ BEN YOUNES Habib, « Les Musées en Tunisie, les enjeux », *La Presse* (journal tunisien), 05 Mars, 2011.

³² Gob A. et Drouguet N., *La Muséologie : Histoire, développements, enjeux actuels*, 2^e édition, Armond Colin, Paris, 293-318

p.

³³ موقع وزارة الشؤون الثقافية

³⁴ نفس المصدر

³⁵ نفس المصدر

- فصل التراث عن الثقافة على المستوى الوزاري. هذه الفكرة القديمة و المتداولة في الاوساط الأكاديمية و البحثية في تونس، حاول الأستاذ عز الدين بالشاوش³⁶ ترسيخها عندما كلف كوزير للثقافة في أول حكومة بعد الثورة التونسية في 2011. لكن قصر مدة توليه للمهمة حالت دون تحقيق هذه الفكرة.
- توحيد الهياكل الخاصة بالتراث في كل من المعهد الوطني للتراث ووكالة إحياء التراث و التنمية المتحفية
- التخلي على سياسة إعادة تهيئة المتاحف الموجودة في مباني ومعالم تاريخية والتي كلفت دافعي الضرائب أكثر من عملية إنشاء متاحف جديدة. هذه المتاحف الجديدة يجب أن تعتمد هندستها على مواد خفيفة يمكن تغيير مواضعها بما يتلائم مع تطور العرض وعلى فضاءات محايدة تعطي للسينوغرافي إمكانيات اخراج متحفية متعددة.
- الوظائف والخدمات المتحفية الجديدة (استقبال، تنشيط، مبيعات، مطاعم...) تتطلب فضاءات ذات مساحات مهمة لم يعد من الممكن اقتصرها في فضاءات ضيقة باعتبار أهمية دورها في استقطاب فئات جديدة من الزوار (عائلات، ذوي احتياجات خصوصية، السائح الثقافي، السائح البيئي...)
- المتاحف/ المخازن: أصبح من الضروري العمل على إنشاء مخازن جديدة (متخصصة، وتتوفر بها ظروف الصيانة اللازمة ويمكن زيارتها) قادرة على استيعاب المجموعات الجديدة المتأتية من حفريات الإنقاذ و الحفريات المبرمجة (تكريس اللى الاثرية في أماكن غير مهيأة)
- موقع المتحف و تأمينه: العملية الإرهابية بمتحف باردو (18 مارس 2015 : 24 قتل و 45 جريح) أثبتت ان المتاحف تبقى الحلقة الأضعف حتى في ظل منظومة أمنية قوية (عدم الاعتناء من العملية الإرهابية التي طالت المتحف الإسلامي بالقاهرة)
- يجب العمل على إعادة التفكير في مواضع المتاحف الجديدة لضمان سلامة الزوار و المجموعات وتسهيل ظروف الزيارة بعيدا عن الازدحام المروري و التلوث و العوامل المناخية (رطوبة مشبعة بالملح في سوسة تؤثر مباشرة في مجموعات الفسيفساء بالمتحف)

● خاتمة:

- إن إصلاح منظومة التراث في تونس ومن ورائها منظومة المتاحف أصبحت أكثر من ضرورة اليوم للحفاظ على تواصل هوياتنا و ثقافتنا المتعددة. إن سياسة الإصلاح هذه من شأنها تمكين متاحفنا من لعب دورها كفاعل اجتماعي عبر ديمقراطية الثقافة و المعرفة و فتح مجالات للمختصين في علم المتاحف و المتحفية و تساهم في دفع عجلة التنمية في أحد أوجه السياحة الذي مازال يعاني التهميش في بلادنا. وهو أمر لا يمكن تحقيقه إلا في إطار سياسة ثقافية شاملة وواضحة المعالم و الأهداف.
- هذه السياسة الثقافية يجب أن تأخذ في عين الاعتبار جوانب مثل:
- بنية تحتية تلائم المواصفات العالمية
 - المجتمع المدني والمواطن التونسي (الحلقة المفقودة في المنظومة التراثية التونسية)
 - استراتيجية إعلامية وتواصلية
 - استراتيجية تسويقية لتراثنا
- إن الوصول الى هذه السياسة لا يتم إلا بالابتعاد عن السياسات غير التشاركية التي أثبتت محدوديتها، وعبر تحديد رسالة أو رسائل لمتاحفنا التي مازال تلازم بطريق واعية أو غير واعية رسالة المستعمر الذي أراد اثبات أحقيته لهذه الأرض باعتباره وريث روما و إمبراطوريتها.

● الهوامش:
المراجع:

- - Ben Othman A., 2009, Musée archéologique de Sousse : Réaménagement et enrichissement, in Journal « La Presse », n° du 20 janvier 2009.
- - BEN Younes H. 2011, « Les Musées en Tunisie, les enjeux », *La Presse* (journal tunisien), 05 Mars, 2011.
- - Beauchamps M., 1926, Un musée de Sousse : La Salle d'Honneur du 4e Régiment de Tirailleurs, in Bulletin de la SAS, n°17, p. 54-72.
- - Dubois F. 1997, l'exposition et le rêve, in lettres de l'ICOM, n° 50-1997, Dijon, p. 20.
- - Foucher L. 1951, le musée de Sousse, Direction des antiquités de Tunisie,
- - Gauckler P., Gouvet E. et Hannezo G., 1902, « Musées de Sousse », in Musées de l'Algérie et de la Tunisie, Ed. Leroux, Paris, 31 p.
- - Gob A. et Drouguet N., 2014 , La Muséologie : Histoire, développements, enjeux actuels, 2^e édition, Armond Colin, Paris, 293-318 p.
- - Lacalotte M. 2001, « L'expansion des musées : constructions, extensions, rénovations », in L'avenir des musées, Actes du colloque organisé au musée de Louvre, Paris, p. 27
- - Mairesse F. et Desvallées A. Vers une redéfinition du musée, Ed. L'Harmattan, 225 p.
- - Saidi H. (2007) Sortir du regard colonial : politique du patrimoine et du tourisme en Tunisie depuis l'indépendance, thèse soutenue à l'Université Laval, Québec, p. 124.

● مواقع الويب:

- - www.patrimoinedetunisie.com.tn
- - <https://icom.museum/fr>

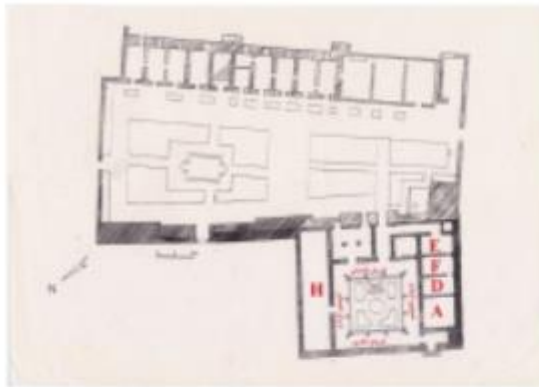


2. المتحف البلدي لمدينة سوسة (1899-1942)
(بطاقة بريدية: أرشيف جمعية البحوث والدراسات
في ذاكره بسوسة)



1. القاعة الشرفية للفوج الرابع للقناصة
أوردها:

Gauckler P., Gourvet E. et Hannezo G., 1902



4. تخطيط المتحف الأثري بسوسة سنة
1951 (أورده FOUCHER L. 1951)



3. قصف ميناء مدينة سوسة
ونواحيه ودمار المتحف البلدي
في 1942

لوحة عدد 1: متاحف الآثار بمدينة سوسة قبل 2012



1. اشغال حفر قاعة العرض تحت الارض



2. هدم المباني الراجعة للفترة الاستعمارية

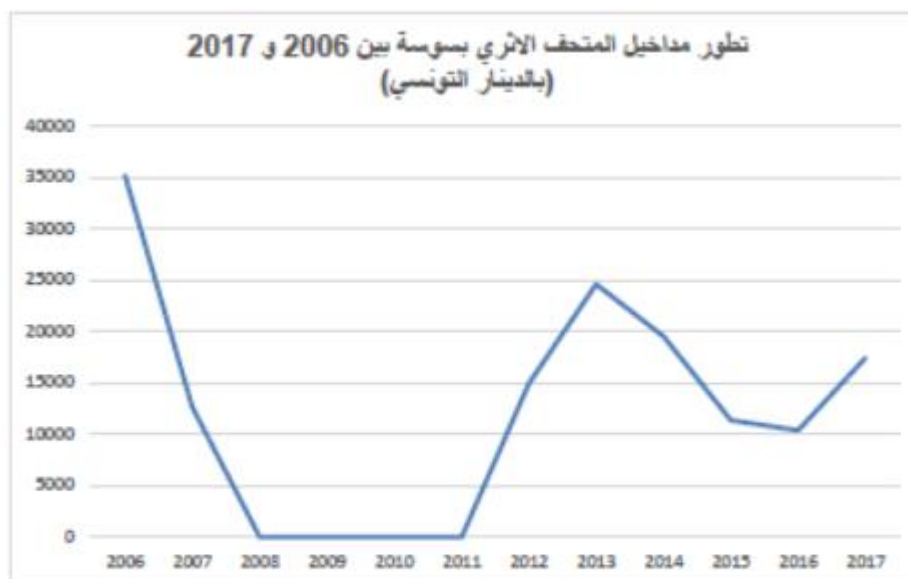


3. سقوط جزء من اسوار القصبة اثناء الاشغال



4. صورة بالورامية لفضاء القصبة
اثر انتهاء الاشغال

لوحة عدد 2: اشغال اعادة التهيئة بفضاء القصبة
(صور شخصية لصاحب المقال)



رسم بياني عدد 1



رسم بياني عدد 2

لوحة عدد 3: مداخيل متحف و مواقع الآثار بسوسة
(معطيات عن وكالة احياء التراث والتنمية الثقافية)